الفصل الثالث

بواعث السحر ودوافعه

الذي يدرس حال السحرة عبر التاريخ يتبين له مدى العناء الذي يعانيه السحرة، وشدَّة العقوبات التي كانت توقع على المتعاملين بالسحر وقسوتها، ومع ذلك استمرَّ إقبال كثير من الناس على تعلم السحر والعمل به، فما الذي يدفع هؤلاء إلى هذا المسلك الخطر.

إنَّ الدافع الأول دافع نفسي مصتبغ بحبِّ الشر والرغبة في إيذاء الآخرين وتدميرهم والسيطرة عليهم، وفي سبيل ذلك يتحالفون مع الشيطان ويدمِّرون أنفسهم كما يدمِّرون غيرهم.

وقد أعطى الجهلاء من الناس السحرة دوافع لمزيد من التوجه نحو هذا الشر الكبير، وذلك لأن كثيراً من الناس يبجلون السحرة ويعظمونهم ويلجؤون إليهم لتحقيق رغباتهم وأهوائهم، وفي سبيل ذلك يبذلون لهم نفائس الأموال، ويغرقونهم بالهدايا والتحف.

وقد حدثنا الباحثون في تاريخ السحر والسحرة عن ذلك الثراء والجاه الذي كان يعيش فيه بعض السحرة والكهنة

فمعبد الكاهنة (دلفي) في اليونان كانت تحيط به الساحات المتسعة وتنتشر فيه النوافير والمعابد الجميلة، وكان له (أستاد) عظيم، ومسرح فخم، وتقوم في

جنباته التماثيل المصنوعة من الذهب والبرنز والرخام، وتزينه الرسوم التي رسمها أعظم فناني ذلك العصر[1].

وحدثنا الباحثون أيضا أنَّ الملك قارون ملك (ليديا) قدَّم لمعبد الكاهنة (دلفي) من كلِّ نوع من أنواع الحيوانات الصالحة ثلاثة آلاف رأس، وأحرق عدداً كبيراً من غالي الثياب المحلاة باللالىء ونفيس الأحجار الكريمة على أمل أنَّ ذلك كلَّه سوف يكسبه عطف ومناصرة إله ذلك المعبد المزعوم، كما طلب من (الليديين) أن يقدم كل منهم قرباناً لذلك الإله.

وبعد أن انتهى ذلك الملك من تقديم القرابين أذاب قدراً كبيراً من الذهب، وصنع منه قواعد للتماثيل، طول الواحدة منها ستة أشبار، وعرضها ثلاثة أشبار، وارتفاعها شبر، وبلغ عددها (١١٧) قاعدة. وكان أربع من هذه القواعد من الذهب الخالص، أما البقية فكانت من خليط الذهب والفضة، كما صنع تمثالاً لأسد من الذهب الخالص. وصنع قدرين كبيرين، إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة، وضعت الذهبية منها إلى يمين الداخل إلى المعبد والفضية إلى يساره، وأرسل قارون إلى ذلك المعبد بالإضافة إلى ما تقدم أربع قوارير من فضة لحفظ الخمور، واثنتين لحفظ ماء الطهور، إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة[2].

ولكنَّ الثمن الذي يدفعه السحرة لقاء السحر الذي يحصلون عليه ثمن باهظ كبير، ذلك أنَّهم يدفعون في مقابل السحر أنفسهم، فلا يرضى الشيطان بأقل من العبودية له، وإذا دان العبد للشيطان فإنَّ نفسه تصبح خبيثة، وقلبه

---

(١) التنبوء بالغيب: ص١٩.
(٢) التنبؤ بالغيب: ص٣٤.

مظلما، وأخلاقه دنسة فاسدة، وتصرفاته معوجة هوجاء، فتراه دائما يغرس الشرَّ حيثما حلَّ، ويشعُّ في كلِّ مكان وصل إليه خبث نفسه وسوء سلوكه.

وقد يرتكب في سبيل إرضاء نفسه الخبيثة وأهوائه الدنسة كلَّ الحماقات والشركيات، فيدعو من دون الله آلهة شتى، ويرتكب الموبقات، ويأكل النجاسات والمحرمات، ويذبح الذبائح ويقرب القرابين باسم الشيطان أو باسم الآلهة التي تعبد من دون الله.

وقد رأينا في مواقف كثيرة أنَّ التقدير والاحترام الذي حصل عليه الساحر تحول إلى احتقار وإهانة، فكثيراً ما يثور الناس على الساحر إذا تبين لهم كذبه، أو عدم استطاعته تحقيق ما وعدهم بتحقيقه، ويكون ثمن ذلك هو القضاء على الساحر وإنهاء وجوده.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية مبيناً تفاهة الثمن الذي يحصل عليه السحرة وعظم الخسارة التي تصيبه.

«أرباب السحر والنيرنجيات وعمل الكيمياء وأمثالهم ممن يدخل في الباطل الخفي الدقيق يحتاج إلى أعمال عظيمة، وأفكار عميقة، وأنواع من العبادات والزهادات والرياضات ومفارقة الشهوات والعادات، ثمَّ آخر أمرهم الشك بالرحمن، وعبادة الطاغوت والشيطان وعمل الذهب المغشوش، والفساد في الأرض، والقليل منهم ينال بعض غرضه، الذي لا يزيده من الله إلا بعداً، وغالبهم محروم مأثوم يتمنى الكفر والفسوق والعصيان، وهو لا يحصل إلا على نقل الأكاذيب وتمني الطغيان، سماعون للكذب، أكالون للسحت، عليهم ذلة المفترين»[1].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ٥/٦٢.

وقد حمل شيخ الإسلام ابن تيمية حملة شديدة على الفلاسفة الذين يمارسون السحر والتنجيم وبيّن ضلالهم، وأن غاية الواحد منهم أن يكون مشركاً عابداً للشيطان، وفي هذا يقول:

«المنجمون والمعزمون فيهم من الجهل والضلال والكذب والمحال مالا يحصيه إلا ذو الجلال، وهل كان الطوسي وأمثاله ينفقون عند المشركين من التتر إلا بأكاذيب المنجمين ومكائد المحتالين المنافية للعقل والدين..

وأما أئمتكم البارعون ـ كأرسطو وذويه ـ فغايته أن يكون مشركاً سحّاراً، وزيراً لملك مشرك سحّار كالإسكندر بن فيلبس وأمثاله من ملوك اليونان الذين كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان»[1].

ويقول في موضع آخر:

«وهل وُجِد في العالم أجهل وأضل وأبعد عن العقل والعلم من أمة يكون رؤوسها الفلاسفة؟ أَوَلَمْ تكن أئمتكم اليونان ـ كأرسطو وأمثاله ـ مشركين يعبدون الأوثان، ويشركون بالرحمن، ويقربون أنواع القرابين للشيطان؟.

أو ليس من أعظم علومهم السحر، الذي غايته أن يعبد الإنسان شيطاناً من الشياطين، ويصوم له، ويصلي، ويقرب له القرابين، حتى ينال بذلك عرضاً من الدنيا، فساده أعظم من صلاحه، وإثمه أكبر من نفعه؟»[2].

والطريف في الأمر «أن الساحر على الرغم مما يبذله من جهد وتعب، وَيُقْدِم عليه من تضحيات في سبيل التعاليم الشيطانية ورضاه بالذل والخنوع وارتكابه المعاصي والمخازي وبيع روحه وكلّ ما يملك لإبليس فإننا نرى جزاءه

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ٥/٦٨.

(٢) درء تعارض العقل والنقل: ٥/٦٤ ـ ٦٥.

من الشيطان لا يتكافأ ولا يتناسب مع كلّ هذا الجهد وهذه التضحيات، لأنَّ عمل الساحر لا يدوم بتاتاً بصفة مستمرة، فإذا أراد الساحر استمرار تأثير سحره فعليه إعادة العمل وتكراره، وبذلك يرتبط الساحر بالشيطان باستمرار، ويشعر أنه بحاجة إليه، فإذا حلت بالساحر المصائب والنوائب فإنَّ الشيطان يتخلى عنه، ولا يسعى لخلاصه»[1].

وقد استعرض محمد محمد جعفر الجهود الهائلة التي يبذلها الذين يمارسون السحر في مواضع من كتابه[2].

أما البشر الذين يلجؤون إلى السحرة فإنَّهم لا يرجعون إلا بالحسرة والخيبة، وحسبهم أنهم تركوا المَلاذَ الحقَّ الذي يجب اللجوء إليه وهو رب العباد، ولجؤوا إلى الشيطان وعبيده فماذا يتوقعون أن يعطيهم؟!.

إنَّ السحر قد اختلط على مدار التاريخ بالأسطورة والحيل المضلِّلة، والخرافات وكلُّ هذا يحرف المسار الفكري والتوجه العملي، ويجعل الإنسان يتصرف تصرفات حمقاء تقضي عليه وعلى أهله وماله.

يحفظ لنا التاريخ أنَّ شعوب أمريكا اللاتينية القديمة دمَّرت حضارتها أسطورة قديمة عن إله أبيض يأتي من وراء البحار لينقذ الشعب.

وعندما جاء (كورتيز) الإسباني على رأس قوة مسلحة اعتقدت تلك الشعوب أنَّ الوعد الأسطوري قد تحقَّق، ولم يكتشف هؤلاء الذين ضلَّلتهم الأسطورة حقيقية (كورتيز) الباحث عن الذهب، إلا بعد أن ذبح مقاتليها، وأرسل الأحياء إلى المناجم.

---

(١) السحر لمحمد محمد جعفر: ص٩١ بشيء من التصرف.
(٢) راجع على سبيل المثال: ص ٢٢٠ - ٢٢١.

وفي إفريقيا استثمر الحاكم البريطاني (جورج غراي) أسطورة كانت منتشرة عند قبيلة (الهوسا) إحدى قبائل (البانتو) التي سكنت الأجزاء الجنوبية الشرقية من إفريقيا في إخضاع هذه القبيلة والسيطرة عليها.

وكانت الأسطورة تتمثل في استشارة الأسلاف في كلِّ أمر من الأمور، وقد أرسل (جورج غراي) ثلاثة من رجاله في عام (١٨٥٧) في زي (الأسلاف) ليعلنوا لهذه القبيلة القوية والتي كانت خاضت حرباً واسعة ضد المستوطنين الأوروبيين ـ نبوءة عجيبة، تزعم أنه سيعمُّ أرضها الخير والسلام، وستطرد الأوروبيين والمستعمرين، ولكن بعد أن تشرق الشمس من مغربها، ولكن هذه المعجزة لن تتم إلا بعد أن تذبح القبيلة ماشيتها، وتحرق مزروعاتها، ولم ينفع اعتراض زعيم القبيلة وقلة معه على هذه الاستشارة، وقضى هؤلاء الجهلاء على أنعامهم وزرعهم، ليصبحوا بعد ذلك لقمة سائغة لذلك الحاكم المخادع، الذي استطاع أن يقصم ظهر القبيلة بعد ذلك بيسر وسهولة.

ومن أعظم الدوافع التي تدفع الناس اليوم إلى الوقوع في حبائل السحرة والمشعوذين والأفاكين على الرغم من التقدُّم العلمي الذي بلغته البشرية ـ المعاناة التي يعانيها البشر في هذه الأيام، فالحيرة والقلق والهموم المستكنة في أعماق القلوب، والعقد النفسية ـ كلُّ ذلك يجعلهم يلجؤون إلى السحرة والمشعوذين والمخدرات والمهدئات، يطلبون من وراء ذلك راحة النفس وهدوء البال، فلا يزداد حالهم إلا سوءاً.

وكلَّما ابتعد الناس عن الله ومنهجه واللجوء إليه والتوجه إليه عظمت حيرتهم وكثر بلاؤهم، ووجد شياطين الجن والإنس لدجلهم رواجاً عند الضائعين التائهين من البشر.